الدَّيْن . . .

عن « موباسان »

بقلم الأستاذ مراد الكردانى

خرجت لتبحث عن القوت فرجعت ومعها جائع !

زحف الظلام فلفَّ باريس كلها . وغشيتها موجة من البرد القارس . وجثمت على صدر المدينة اللاهية الضاحكة غاشية من همٍّ ثقيل حبست الناس إلى دورهم ، وحلّقتهم حول مدافئهم . وقد خلت من رُوّادها المسالك والطرقات . وجمت مدينة النور — على كُرهها — تحت أطواء ليل بارد مظلم طويل

ولكن « فانى » التى طوت نهارها طاوية لم تكن لتأبه لذلك البرد القاسى ، فإن الجوع قد لوى أمعاءها وخمصَ بطنها ، وأشاع فى نفسها الخوف من أن تتضور فى غدها كما تضورت فى يومها ؛ فخرجت — ككل أمسية — لترابط على رأس طريق تنتظر فيه من يمنحها الخبز الرخيص لقاء أن تهبه جسدها ساعة أو بعض ساعة

فى تلك الليلة القَرّة كان الرجال يمرون بها مراً لا يحفلون بها ، لأنها لم تكن تحسن دعوتهم ؛ ولأن لذع البرد لم يدع فى نفوسهم سوى أن يصلوا إلى مكان دافئ كنين ، فلم تُلفتهم تلك المسهسة المرتجفة التى كانت تقع من أذهانهم موقع الظّنة والعجب من هذه الفتاة التى تهزأ بهم وتسخر منهم فى هذا الليل المثلوج !

كانت شابة جميلة تقف على قمة العشرين ، تفور أنوثتها فى كيانها فتنضح حسناً فى وجهها وامتلاء فى جسدها ، وشهوة تتألق فى عينيها الشرهة ونظرتها الآثمة ...

تلك « فانى » التى سطع نجمها فبهر باريس من أقصاها إلى أقصاها ، وشغلها عن كل غانية سواها ، تدور الليلة يهرأها البرد ويلويها الجوع فلا تجد من يشبعها أو يأويها . حتى إذا خَدِرت قدماها من طول ما وقفت ، وسرت فى قدميها وفخذيها رطوبة الأرض المصقوعة همت راجعة وهى تتمتم قائلة :

— لم يعد ثمت أمل فلأرجع إلى بيتى

وكأنما شق عليها أن تنتهى غمرتها هذه النهاية الحزنة المؤلمة ، لأنها حين دارت بجسمها لتأخذ طريقها دارت عينها تفحص الظلام حولها عله يتفتق عن رجل ... فلمحت شبحاً يسير مضطرباً متثاقلاً يتلفف فى معطف بال مهلهل ... كان بين الخطوة والخطوة يتأنى ويتمهل كأنه يستوضح الطريق أو يدبر المصير

وحين تبينته ظنته طلبتها التى إليها تهفو فرصدت سبيله ، وطفقت تهمس له فى صوت داعر مرتعش لفته حين ملأ سمعه ... فاستدار لها وقصدها متوجساً منها مسرعة إليه ! !

... لم يكن مخموراً كما حسبت ، ولا كانت خاطئة كما ظن ... إنما كان جائماً شريداً ... مهزولاً ، ذرع المدينة الغارقة فى الثلج يومين كاملين حتى عصبه الجوع وأزحفه السير والسرى

قالت له فى حنو وإشفاق ، وهى تسنده فى لفة ذراعها وتقبله فى نهزة الظلمة والسبيل خالية :

— مسكين ... مسكين الا تحزن ... تعال معى فهى حجرة على أى حال وفيها دفء وقرار ...

... ووصلا معاً ... وحين دلفا إلى الحجرة ، واستشعر دفئها

كانت تراه يشع بنور سماوى فشعرت برهبة شديدة تستولى عليها . هل جاء دور هذا الرجل لحاكمتها . سوف يكون حكمه أشد قسوة من الحكم الأول لأن من حقه أن يستنكف الخطيئة التى ارتكبتها

وبينما كانت تتنازع نفسها عوامل الخوف والرهبة سمعته يقول لها :

« وأنا أيضاً لا أدينك . اذهبى بسلام ولا تأتى بعد اليوم »

عند ما انتهت إلى نفس المرأة الخاطئة هذه الكلمات الحاملة لمعانى الغفران والمحبة تمت المعجزة فى قلبها . ذلك أن شرارة صغيرة هى قبس من الضياء السرمدى اشتعلت فأوقدت شعلة مضطرمة أنارت ظلام القلق والنضال اللذين كابدتهما أياماً وليالى عديدة . وكانت تود فى بعض الأحيان لو تنطفئُ هذه الشعلة لأنها كانت تجد أن روحها ليست جديرة بزانية مثلها . ولكن الشعلة لم تنطفئْ بل خطت فى قلبها كتابة لا تمحى عن بشاعة الخطيئة وجمال العدل . وقد ظلت متقدة حتى امتلأت بقدسيتها نفس تلك المرأة الضالة

صبرى شيبوب

صاح فى جذل وسرور وهو يلقى بنفسه إلى الأرض إلقاء :

— ما أهنأنى بهـذا المكان ... إنه ولا شك أفضل من الشوارع. نعم إنه أفضل من الشوارع لقد أمضيت دهراً فى الشوارع

وفتحت « فانى » خزانتها وعَيَّنَتْ فيها ، وكانت تحوى كل ما تملك من ملابس وطعام وشراب ! إن كانت الكسر التوافه التى ضربت فيها العفونة تسمى طعاماً ... أو إن كان القليل من النبيذ الرخيص يصلح أن يكون شراباً ...

قدمت له كل ما عندها ، بعد أن عجفت نفسها عنه ، فشبع وروى جهد ما وسعها أن تشبعه وترويه ... وحين أهجأه الطعام[1] شرع يقص عليها قصصه وقد طامنت جوعها واطمأنا معاً ... قال :

« قضى جدى منذ زمن قصير ولم يكن لى سواه وكان مصوراً مغموراً ... وقبيل موته أوصى بى أحد معارفه هنا ، وحملنى إليه رسالة مكتوبة ناشده فيها أن يعنى بأمرى ، ويعلمنى حرفة التصوير وكنت أحمل — حين قدمت باريس — نيفاً وثلاثين فرنكاً كانت كل ما أملك من متاع الدنيا ...

« طفقت أبحث عن الرجل فما وقعت له على أثر . إذ كان نقل مسكنه إلى حيث لا يدرى أحد من جيرته فلبثت ستة أشهر أنفق مما معى إنفاق الحريص الشحيح حتى نفدت ثروتى عن آخرها منذ سبع ليال ! فهمت على وجهى متسولاً فى الطرقات ، وفى تلك الأيام التى يجمد فيها الدم وتجن فيها الريح ... آه يا سيدتى ... عند ما لقيتك لم أكن قد طعمت شيئاً منذ ثمان وأربعين ساعة ! »

وكان التعب والدفء قد فعلا فيه فعلهما فلم يَقْوَ أن ينهض ليخلع عنه أخلاقه . فنهضت تساعده وتنضوها عنه فى رقة وحرص ... ثم احتوته فى صدرها فى عطف وحنو ، وأخذت تقبله وتدلله وقد شاعت فيها الرحمة وأنساها بؤسه بؤسها . ثم ثم تركته لتخلع ملابسها هى أيضاً . . . ثم صعدا معاً إلى فراشها وكنَّنته فى حضنها كطفل عليل ، وناما — ملء عيونهما — إلى ضحوة النهار

... ... واستدانت ثمن غذاء رخيص فى مطعم حقير ، وحين جاء الليل تأذنته أن تغيب عنه بعض الوقت ... وحين عادت أفرغت بين يديه اثنى عشر فرنكا قائلة إنها كسبتها وإنها أحسن حظاً من الليالى السالفات، وإنها تدين له بهذا الحظ الوفير، ثم قبلته وتركته كرة أخرى ، إذ كانا — لا يزالان — أول الليل

... ... وأوغل الليلُ ... ثم انتصف ... ثم تهوَّر ولم تعد « فانى » فقلق عليها . ولكن لم تداخله فى خفيتها ريبة ...

وأسفر الصبح ولم تعد أيضاً ... ولما علا النهار غادر الحجرة . إذ كان عليه أن يعول نفسه ويعودَ ثانياً فيطرقَ شوارع باريس المديمة القلب ، وإن كانت ستغنيه تلك الفرنكات القليلة التى تركتها له — تلك التى لم يعرف اسمها — عن التشرد بضعة أيام !

أما هى فكان من تعسها أن احتجزها رجل الشرطة ، لأنها كانت تسير عبر شارع محظور على مثلها أن تسلكه أو تظهر فيه ... ومن ثَمّ أعدوا لها — جزاء ما اجترأت — مكاناً فى سجن البغايا فى « سانت لازار »

* * *

ودارت عجلة الزمان خمس عشرة دورة ، تحولت الحال فيها غير الحال ، وتبدل فيها كل شىء . . . ذاقت خلالها « فانى » من صابِ الحياة وحلوها ويسرها وعسرها ما تذوقه كل طريدة مثلها ... وهبت نفسها للإثم والخطيئة ... فعلا التيار بها وهبط ومد وجزر . حتى استقر المطاف بها أخيراً فإذا هى — بعد جهد السنين — غانية باريس الأولى وزهرة مجتمعاتها وحفلاتها وكوكبها الذى إذا ظهر أخذ وبهر ، وإذا غاب شغل وأسر . . . !

كذلك ، وفى وثبة واحدة بلغت « فانى » الأوج وارتفعت إلى الذروة مالاً وجمالاً وشهرة وبُعدَ صيت . وأثرت تلك الفتاة المعدمة الشريدة التى آوتها الطرق ليالى وأياماً وربتها الحادثات ، والتى عانت الجوع والعرى ألواناً وأعواماً ؛ وتدفق فى يديها الذهب ، وأقبلت عليها الدنيا ، حتى سار المثل بغناها وبذخها ، واندفعت فى نزق وجنون تنتقم من يومها لأمسها ، فأسرفت فى اقتناء الجياد والمركبات واستعمال الخدم والنُّدُلِ ، وجُنّت بالترف البالغ والسرف الطائش حتى طاولت بقصورها قصور السادة والأمراء، وطار ذكرها فعبر فرنسا كلها وجاوزها، فتهاوت تحت قدميها أفئدة الرجال ، واحتولها[1] السادة ، وتحلقها الخاصة ، واحترق فى وهجها الشباب النَّضر من كل صوب وفج ، وذابت فى لذعةِ السحر من عينيها الآخاذتين الأموال الكريمة . والضياع الوسَاع ، واختفت فى أبهاء قصورها وبهرَات ملاعبها ومغانيها ثروات السفهاء البُله من سادة الحكم ووزراء الحاكم وأمراء المال من كل بلد وقطر !

(١) أهجأه الطعام أسكت جوعه

(١) احتولها : تجمعوا حواليها

وَظلَّت « فانى » فترة من الزمن ملكة الجمال الفاتن والبذخ العريض ، ليس فى باريس وحدها ولكن فى دائرة مركزها باريس ومحيطها عَبْر المحيط ... تملكُ أفئدة الخاصة ـ بل خاصة الخاصة ـ بخيوط تُجمِّعُها فى يدها . فتُقْوِى من تشاء وتُرْجى من تشاء ، وتَتَخلَّى من تريد وقت ما تريد . وبلغ بها هَوَسها أن تألَّهَتْ فقسمت الحظوظ بين عُبَّادها وفَرَّقَتْهم ، فمنهم شقى وسعيد !

... وأوْفَتْ الفتنة فى هذه « المخلوقة » وبها على الغاية حتى ذل فيها الأعِزَّة الشمُّ من الحافِّين حولها ، وحتى هلك فى سبيلها من حقَّتْ عليه كلمتها . فقضى من أجلها من قضى ، وجُنَّ فيها من جُن ... ...

* * *

... وكأنما بَرِمتْ باريس بهذه الداهية الوافدة التى شغلتها برهة من الزمن فعاجلها القدر وهى فى عقدة عِزِّها ، إذ توالت عليها المصائب ودهمتها الحوادث بغتة ومن غير تمهل ، فأخذت تنحدر سريعاً كما ارتفعت سريعاً ... وفعلت تلك الحياة العابثة الصاخبة فِعلها فى أعصابها وكيانها ... فأصابتها لوثة جعلت تخبط فيها على غير هدى ... ثم ركبتها الديون ... ... فاضطربت رأساً لقدم ، وأخذتها المعرة فلم تَقْوَ أن ترى الدائنين يجترئون عليها فيقتحمون مقاصيرها . ويخادِعَها — على عينها — ليستوفوا أموالهم بعِدل ما تحوى من كنوز ثمينة وطرائف عجيبة ونفائس غالية ! ! ...

وأسلمها الخبل إلى الجنون ، وتضاءلت شهرتها وانفضت من حولها حاشيتها . وتقلص ظلها الممدود وهوى النجم الذى تضوَّأ فأفلَ — من وهج نوره — كل نجم سواه ... واختُصِرت الدنيا العريضة التى وسعتها ، حتى صارت حجرة ... حجرة بسيطة فى مستشفى المجانين لا تليق أبداً بـ « فانى » العظيمة ! ...

وقرأ الفنان العظيم « فرنسيس جورلاند » خَبرَ ما أصاب « فانى » غانية فرنسا ، فلم يلفته النبأ بَدْء الأمر ، ولكن الصورة المنشورة أرجعت عقله — حين توضَّحها — إلى الوراء بعيداً بعيداً .. حتى عثر فى طواياه على ذكرى سحيقة ... ذكرى تلك الليلة ... ... وحين عرف أن « فانى » الحسناء لم تكن سوى تلك الفتاة التى أطعمته وأدفأته وحنت عليه حنو الأم على وليدها والتى ذهبت عنه فلم يرها ولم يسمع بها ، والتى جَدَّ فى البحث عنها فلم يجدها حتى أيس منها ، والتى كانت تصحو ذكراها فى زوايا قلبه فيردِّد شكرها فى أعماقه ويتمنى لو يراها ... حين عرف كل ذلك آسفَتْه هذه النهاية المفجعة لهذه الغانية الطيبة القلب ... ثم عجب لنفسه كيف جهل أن « فانى » التى لهجت بسيرتها كل شفة وشغلت بجمالها كل إنسان لم تكن سوى فتاته التى تركت له اثنى عشر فرنكا ومضت ...

قال يحدث نفسه بعد أن رجع من غياهب الماضى الذى غَرِق فيه :

— إنه لا يحسن أن تنتهى حياة « فانى » هكذا ، وفاض فؤاده نحوها بحنان غزير . واعتزم أن يعمل من أجلها عملاً ما، ومع أنه يَحمد للقدر أن هيأ له أن يراها ليبثها شكره وامتنانه ، وليرد لها جميلها الذى لا يستطيع أن ينساه ، إلا أنه حزن وأسى وود لو كانت لقياها فى ظروف أحسن من هذه

ولم يكن الفنان النابه ثرياً إنما كان يحيا حياة وسطاً قوامها ما كان يربحه من فنه كمصور ، فباع كل ما يملك ليستطيع أن يجد لها مكاناً خيراً من الذى هى فيه وجواً أرجى وأنقى . وعناية أتم وأكمل حيث تراعى وتعالج ويعنى بحالتها النفسية ، وحيث تقوم على أمرها ممرضة تحنو عليها وترعاها ... وهناك تحسنت صحتها تحسناً ظاهراً شجعه أن يحملها إلى بيته ليخدمها بنفسه . وليدخل على قلبها لوناً من المسرة والبهجة ، سيكون له ـ بإذن الله ـ أثر فى تقدم صحتها ، ولكن الطبيب عارضه وأنكر عليه ونصحه قائلاً :

— ستعود بها إلينا ثانياً ... إن لهذا المرض نوبات تعاودها حيناً بعد حين . وقد تقضى عليها إحدى هذه النوبات

فلم يرضخ لنصح الطبيب ، وقال له :

— إنه لا بد أن تعيش معى ، إنها أشبه بأمى . . .

وفى منزله اعتنى بها وخدمها بإخلاص ، وسهر عليها فى حنو وصبر . وكانت الصدمة قد كهلتها فتخاذلت وابيض شعرها ، ولم تستطع أن تعى حقيقة أمرها ، ولا أن تعرف شيئاً عن الرجل الذى يأويها ويقوم على شأنها ، ولم يشأ هو أن يذكرها بنفسه ، بل ذهب إلى أبعد مدى فى النبل وإنكار الذات ، إذ تركها تعتقد